الأدب في العصر الجاهلي

يُعد الأدب في العصر الجاهلي - وبخاصة الشعر - ديوان العرب ، وصورة مشرقة حية لهذه الفترة إذ يعتبر سجلا أمينا لكل مظاهر الحياة بكل صورها ، وتاريخياً دقيقاً لأحداث هذا المجتمع وتطوره ، وذلك من خلال أسلوب أدبي ولغة أدبية جذابة شائقة مؤثرة ممتعة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأدب الجاهلي مثَّل الحياة الجاهلية بكل ألوانها - السياسية والاجتماعية والعقلية ، تمثيلا صادقاً ، في صورة ناطقة بأحاسيس ومشاعر الأدباء والشعراء .

ميزات الأدب الجاهلي:-

بالرجوع إلى الأدب الجاهلي والنظر فيه من ناحية الشكل والمضمون، هما ركنا الأدب وأهم خصائصه - يمكن أن نحصر مميزاته فيما يلي :

١. المفروض أن الشعر هو الفن الأدبي الأول الذي سيطر على هذه الحياة البدوية ما دام الشعر لغة الطفولة الإنسانية ، وأسبق الفنون الأدبية إلى الوجود .

٢. تمتاز العاطفة في الأدب الجاهلي بالصدق ، وذلك لما امتاز به الجاهليون من الحرية والاعتزاز بالنفس ، فلم يكن هناك ما يدعوا إلى النفاق والمداراة ، وقد كان منهم من هجا الملوك والرؤساء وعرض نفسه للهرب أو الهلاك بسبب صراحته وصدق شعوره كطرفه والمتلمس ، وإن لم تصل العاطفة إلى ما نطلق عليه الآن " سمو العاطفة " والنزعة الإنسانية العامة، ولعل ذلك نابع من تأثر الأدب في تلك الفترة بالحياة المادية .

٣.ومن ناحية الفكر فإننا نلحظ أنها ثمرة تجارب شتى ، وأفكار متناثرة تمثل الذكاء وحدة الذهن ، ولا تمثل النظرة الشاملة أو المنطقة المسلسل المستقيم ، وذلك راجع إلى انعدام الحياة العقلية الراقية ، فكان الأدب الجاهلي يقوم على الشعور على هذه التجارب العادية والضروريات الطارئة .

٤.أما الخيال ، فهو الخيال البياني أو التفسيري القائم على الاستعارة والتشبيه والمحايز وما إليها وهذا النوع طبعي ما دام الأديب يتخذ عناصر هذا الخيال من البادية ، فالرجل العظيم فحل ، أو قرم أو حبل ، والناقة في سرعتها كالحمار الوحشي ، والرجل السريع كالظليم أو الحصان، والكريم كالبحر، والشجاع كالأسد، والمرآة كالغزال والبقرة الوحشية ، وهكذا يتخذ موضوعاته الوصفية وعناصره الخيالية من الصحراء والسماء والكواكب والحيوان، فهو أدب حقيقي قلما تجد فيه مبالغة تخالف ظروف العصر وأحواله .

٥.أما من ناحية الأسلوب ، فهو الأسلوب الطبيعي العربي الخالص القائم على قلة الترادف والتكرار ، وعدم الثرثرة ، وعدم الاهتمام بالفنون البديعية، وذلك لقرب اللغة من عهدها الطبيعي اليسير ، وكذلك الميل إلى الإيجار ولاسيما في النثر ، كما كان الأسلوب خاليا من اللحن .

ولسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية أو صعوبة عبارتها ، فذلك يجب أن يقاس بمستوى ومصارف الجاهليين أنفسهم ، وما دام هذا الأدب مفهوما لديهم يتلقونه ويعارضونه ويتأثرون به، فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف.

والأدب الجاهلي بهذه الصورة سيظل معيناً لا ينضب للأدباء والدارسين على مر العصور واختلاف الأماكن .

نونية المثقب العبدي

هذه القصيدة من بحر " الوافر "

نص القصيدة :-

١. أفــاطم قَبْــلَ بينــك متعينــي
ومنعــك مــا ســألت كــأن تبينــى

٢. ولا تعــدى مواعــد كاذبــات
تمــر بهــا ريــاح الصــيف دونــي

٣. فــإني لــو تخــالفني شــمالي
خلافــك مــا وصــلت بهــا يمينــي

٤. إذا لقطعتهــا ولقلــت بينــي
كــذلك أجتــوى مــن يجتــويني

٥. لمـن ظعـن تطـالع مـن ضـبيب
فمـا خرجـت مـن الـوادي لحـين ؟

٦. تبصـر هلـى تـرى ظعنـاً عجـالاً
بجنـب الصحصـحان إلـى الـوجين ؟

٧. مـررن علـى شـراف فـذات رَجْـلٍ
ونكــبن الــذرانح بــاليمين

٨. وهـن كـذاك حـين فقطعـن فلجـا
كــأن حــدوجهن علــى ســفين

٩. يشــبهن الســفين وهــن بخــت
عراضــات الأبــاهر والشــؤون

obeikandl.com

١٠. وهـن علـى الرجـائز واكنـات
قواتـــل كـــل أشـــجع مســـتكين

١١. كغـزلان خـذلن بـذات ضـال
تتـــوش الـــدانيات مـــن الغصـــون

١٢. ظهـرن بكلـة وسـدلن رقمـا
وثقـــبن الوصـــاوص للعيـــون

١٣. أريـن محاسـناً وكـنن أخـرى
مـــن الـــديباج والبشـــر المصـــون

١٤. ومـن ذهـب يلـوح علـى تريـب
كلـون العـاج لـيس بـذى غضـون

١٥. وهـن علـى الظـلام مطلبـات
طـــويلات الـــذوائب والقـــرون

١٦. بتلهيـة أريـش بهـا سـهامي
تبـــذ المرشـــقات مـــن القطـــين

١٧. علـون ربـاوة ، وهـبطن غيبـاً
فلـــم يـــرجعن قائلـــة لحـــين

١٨. فقلـت لبعضـهن وشـد رحلـي
لهـــاجرة نصـــبت لهـــا جبينـــي

١٩. لعلـك إن صـرمت الحبـل منـي
كـــذاك اكـــون مصـــحبتي قرونـــي

٢٠. فسل الهم هنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

٢١. بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

٢٢. كساها تامكا قرداً عليها

سوداى الرضيخ مع اللجين

٢٣. إذا قلقت شددت لها سنافا

أمام الزور من قلق الوضين

٢٤. كأن مواقع الثفنات منها

معرس باكرات الورد جون

٢٥. يجذ تنفس الصعداء منها

قوى النسع المحرم ذي المتون

٢٦. تصك الجانبين بمشفتر

له صوت أبح من الرنين

٢٧. كأن نفى ما تنفى يداها

قذاف غريبة بيدي معين

٢٨. تسد بدائم الخطران جثل

خوايه فرج مقلات دهين

٢٩. وتسمع للذباب إذا تغنى

كتغريد الحمام على الوكون

obeikandl.com

٣٠. وألقيت الزمام لها فنامت
لعادتها من السدف المبين
٣١. كأن مناخها ملقى لجام
على معزائها وعلى الوجين
٣٢. كأن الكور والأنساع منها
على قرواء ماهرة دهين
٣٣. يشق الماء جؤجؤها وتعلو
غوارب كل ذي حدب بطين
٣٤. غدت قوداء منشقا نساها
تجاسر بالنخاع وبالوتين
٣٥. إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
٣٦. تقول إذا دارأت لها وضيني
أهذا دينه أبداً وديني ؟
٣٧. أكل الدهر حل وارتحال
أما يبقي على وما يقيني ؟
٣٨. فأبقى باطلي والجد منها
كدكان الداربنة المطين
٣٩. ثنيت زمامها ووضعت رجلي
ونمرقة رفدت بها يميني

obeikandl.com

٤٠. فرحت بها تعارض مسبطرا

على صحصاحة وعلى المتون

٤١. إلى عمرو ومن عمرو اتتني

أخي النجدات والحلم الرصين

٤٢. فإما أن تكون أخي بحق

فاعرف منك غثى من سميني

٤٣. وإلا فاطرحني واتخذني

عدواً أتقيك وتتقيني

٤٤. وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

٤٥. أألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

التعريف بالشاعر [١]

✍ هو عائد بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن نكرة بن عبد القيس بن أسد بن ربيعة ، ولقب بالمثقب لبيت قاله هو :

ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون .

✍ لم تجد المصادر الأدبية بشيء يكشف النقاب عن حياة المثقب الأسرية ، وكل ما لدنيا أن أباه - محصن بن ثعلبة - كان رجلاً مرموقاً في قبيلته ، لقب بالمصلح لأنه قام بالمصلح بين قبيلتي بكر وتغلب ، وكذا قبيلتي عوف وعامر ، وفي هذا يقول المثقب :

١- انظر ترجمته في : شرح المفضليات للتبريزي ٢ / ٥٥٥ ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٧١ ، الشعر والشعراء لابن قيبة ١ / ٣٩٥ .

obeikandl.com

أبـي أصـلح الحيـين بكـراً وتغلبـاً

وقـد أرعشـت بكـر وخـف حلومهـا

وقـام بصـلح بـين عـوف وعـامر

وخطـة فصـل مـا يعـاب زعيمهـا

ومما لدينا أيضاً أن أختـه هـي ام شـاس بـن نهـار العبـدي الشـاعر المعـروف باسم الممزق ، أما تاريخ مولده فمجهول وتوفي سنة (٥٨٨ م) .

✍ والمثقب العبدي من شعراء عبد القيس ، وهي إحدى قبائل البحرين التي دانت بالنصرانية في الجاهلية ، ولذا عده الأب لويس شيخو ضمن الشعراء النصرانيين في كتابة الشعراء النصرانية في الجاهلية ، ومما يشير إلى نصرانيته ذكره للفظ الجلالة مرجئاً إليه الثواب والجزاء في قوله :

فجـــزاه الله مـــن ذي نعمـــة

وجـــزاه الله إن عبـــد كفـــر

كما جاء مقرا بمشيئة الله بعد تيقنه ، في قوله :

وأيقنـــت إن شـــاء الإلـــه بأنـــه

ســـيبلغني أجلاهـــا وقصـــيدتها

ومـن أقوالـه الـتي نستشـف منهـا لونـاً مـن ديانتـه ، والـتي تـومى إلى وجـود إلـه مدبر ، فتعكس لوناً من نصرانيته :

ومـــا أدري إذا يممـــت وجهـــا

اريـــد الخيـــر أيهمـــا يليني

أألخيـــر الـــذي أنـــا ابتغيـــه

أم الشـــر هـــو يبتليـــني؟

- وقد تعددت ألوان الثقافات في شعر المثقب العبدي ، وإن في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة به ، والأفكار السائدة فيها .

ومن أهم مظاهرها تلك الثقافة اللغوية التي تجلت في اتساع لغته الشعرية وتعدد مرادفاتها بصورة بينه تمكنه من اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، فجاءت ألفاظه دقيقة في مدلولاتها .

- كما اتسمت ثقافة المثقب ببعض السمات الحضرية ، ولعله اكتسبها من بيئته - البحرين لوقعها في كنف مملكة الحيرة ، والاحتكاك بها ، هذا بالإضافة إلى ما للبحرين من سمات حضرية نتيجة لوقوعها على شاطئ الخليج العربي ، مما سهل لها حياة الاستقرار ، وفتح أمامها أبواب الرزق كالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والصيد ، فبدا طبيعياً أن تتسم الحياة في البحرين بالسمة الحضري ، والتي أثرت بدورها في ثقافة المثقب .
- وكما تأثرت ثقافة المثقب العبدي بالبيئة المحيطة به بدت كذلك متأثرة بالمعتقدات السائدة فيها آنذاك ، فبدا أثرها واضحا جليا في شعره.
- هذا وقد جاءت أشعار المثقب خير شاهد على طيب عنصره وسمو خلقه، ومن أشعاره التي تؤكد ذلك قوله :

أجعل المال لعرضي جنة

إن خير المال ما أدى الذمم

ومن أشعاره التي تشير إلى عزة نفسه وأنفته ، قوله :

أنا بيتي من معد في الذرى

ولي الهامة والفرع الشم

openkandil.com

وكذلك يتعفف عن الغيبة والفحش ، إذ يقول :

لا تراني راتعا في مجلس

في لحوم الناس كالسبع الضرم

وكلام سيء قد وقرت

عنه اذناى وما بي من صمم

ومن أقواله التي تدل على تسامحه وصفحه عند الإساءة إليه :

ولبعض اصفح والإغراض عن

ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

✍ وقد تأثر بشعر المثقب عديد من الشعراء المعاصرين له واللاحقين به ومن هؤلاء : الطرماح ، والشماخ بن ضرار ، والنابغة الذبياني .

اللغة والمعاني :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

ولا تعدي مواعد كاذبات

تمر بها رياح الصيف دوني

فإني لو تخالفني شمالي

خلافك ما وصلت بها يميني

إذا لقطعتها ولقلت بيني

كذلك أجتوى من يجتويني

اللغة :

أفاطم : أراد أفاطمة ، فقطع آخر الآسم وهو الترخيم .

البين : البعد والفراق. **متعينى :** يريد متعينى بوصلك .

ومنعك ما سألت : أي منعك لوصلي . **كأن تبينى :** أي كمفارقتك عندي .

تمر بها : تذهب بها وتفرقها في كل وجه . وخص رياح الصيف دون سائر الأزمنة ، لأن الخير يقل فيها ويكثر غبارها ولا يجلب مطرا .

وقال الأستاذ " محمود شاكر " إنما عنى برياح الصيف مما يثور بينه وبينها من الخلاف والعناد واليأس ، وكل ما يذهب بالمودة ويعصف بالمواعيد .

بينى : ابتعدي . **الاحتواء :** الكراهة والاستثقال .

المعنى :

افتتح الشاعر قصيدته بخطاب مباشر إلى صاحبته - فاطمة - يستنكر فيه عزمها على الفرقة والارتحال ، ويأمرها بأن تتمهل في فراقها حتى تصله كسابق عهدها ، وأن تلتزم في وعودها دون خداع أو مواربة ، وإلا فلن يشفع لخداعها مكانها في قلبه مهما تعاظم قدرة ، فلو أبي عزيز ، تأبى عليه نفسه أن يرتضي الخنوع والاستسلام لنداء قلبه ، فلو قدر لشماله أن تخالف يمينه على شاكلة صاحبته لقطعها دون تردد أو تريث ملوحا بها بعيداً عنه ، فلا حاجة به لمن رغب عنه وأحب مفارقته .

لمن ظعن تطالع من ضبيب

فما خرجت من الوادي لحين

obeikandl.com

مـررن علـى شـراف فـذات رجـل

ونكـــبن الـــذرانح بـــاليمين

وهـن كـذاك حـين قطعـن فلجـا

كـــأن حـــدوجهن علـــى ســـفين

يشـــبهن الســـفين وهـــن بخـــت

عراضـــات الأبـــاهر والشـــؤون

اللغـة :

ضبيـب : أسم مكان . **لحين :** أي بعد إبطاء ومضي وقت.

ذات رجل : موضع .

الذرانـخ : جمـع ذرنحـة . وهـي الأكمـة دون الهضـبة ، وهـو هنـا موضـع معـروف بين كاظمة والبحرين .

نـكبـن : عدلن عنه .

ومعنى كذاك : أي حالتها الأولى يوم قطعن فلجاً ، وكأن حمولهن على سفين .

السفين : جمع سفينة . **العراض :** العريض المفرط .

الأباهـر : الظهور ، وأصل الأبهر عرق في الظهر .

الشؤون : جمع شأن ، وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

المعني :

ويحـاول الشـاعر أن يضـفي صـبغة واقعيـة علـى تجربتـه بتحديـده للأمـاكن الـتي مـر بهـا موكـب صـاحبته عنـد الارتحـال ، مـن ضـبيب ، والصحصـان ، والـوجين ، وشـراف ، وذات رجـل ، والـذرانح ، وقـد عمـد الشـاعر إلى ذكـر هـذه الأمـاكن لتحـري

obeikandl.com

الدقة في وصفه للطريق ، كما أنها تحقق له المتعة واللذة بذكرها وتساعده على استحضار عناصر تجربته في جميع صورها ، هذا بالإضافة إلى كونها علامات على الطريق ترشد من ضل طريقة في البيداء.

ثم انتقل بعد ذلك إلى لقطة أخرى يشبه فيها إبل الموكب في ضخامتها وسرعة سيرها بانسياب السفن في الماء ، فهي طويلة ، عريضة الظهر ، تتمايل في سيرها كتمايل السفن في الماء .

وهن على الرجائز واكنات
قواتل كل أشجع مستكين
كغزلان خذلن بذات ضال
تتوش الدانيات من الغصون
ظهرن بكلة وسدلن رقما
وثقبن الوصاوص للعيون
أرين محاسناً وكنن أخرى
من البياج والبشر المصون
ومن ذهب يلوح على تريب
كلون العاج ليس بذي غضون
وهن على الظلام مطلبات
طويلات الذوائب والقرون
بتلهية أريش بها سهامي
تبذ المرشقات من القطين

اللغـــة :

الرجائز : مراكـب النسـاء ، جمـع رجـازة ، وهـي أصـغر مـن الهـوادج . واكنـات جلسات مطمئنات .

وقوله " قواتل كل أشجع ، أي كل رجل أشجع في نفسه مستكين لهن .

والاستكانة : الخضوع . **خذلن :** جنحن .

ذات ضـال : أسم موضع . **تنوش :** تقطف .

الكلة : غطاء يفرش على الهودج .

الرقم : البرود ، أو ضرب مخطط من الوشي .

الوصاوص : البراقع .

البشر المصون : بعـض بشـرتها كاليـد وبعـض الوجـه، ومـا لا ريبـة في إظهـاره، وسترن ما عدا ذلك .

التريب : جمع تربية، وتجمع على ترائب ، وهي عظام الصدر موضع القلادة .

الغضون : تثنى الجلد .

على الظلام : أي على ظلمهن . **مطلبات :** مطلوبات لفرط جملهن .

الذوائـب : ضفائر الشعر المسترسلة على الظهر.

القـرون : خصلة من الشعر بجوار الأذن .

تلهيـة : تفعلـة مـن اللـهو، أي ننصـب الحبالـة لهـن ، ونعـد سـهام اللـهو فنرصـد لصيدهن . **تبذ :** تسبق .

المرشقات : الحديدات النظر، وقيل لا يكون الارشاق إلا بمد العنق .

القطيـن : الخدم ، والجيران ، والتباع .

obeikandl.com

المعنى :

ثم انتقل شاعرنا إلى وصف جمال محبوبته ، وهي في معية صويحباتها - حتى لا يظهر صورتها كاملة أمام السامعين ، متبعاً في ذلك تقاليد البادية العربية في ضرورة الحفاظ على المرأة وصونها فأشاد بفرط جمالهن حتى استطعن أن يقتلن بسهام نظراتهن كل شجاع في استكانة ويسر، حتى لا يملك من أمر نفسه إلى أن يستكين ويخضع لسلطان جمالهن ، والذي رحن يكشفن عن بعضه من البشرة الملتفة في أبهى ثياب من الديباج والحرير، والصدور البيضاء التي تشبه العاج في بياضه وإشراقه، مما مكنهن من استلاب قلوب الرجال في خفة ورشاقة كغزلان تتهاوى في رياض يانعة يقطفن من ثمار غصونها الدانية، وهن على ظلمهن للرجال مطلوبات لفرط جمالهن ، فهن طويلات الذوائب والقرون ، ولذلك يحتال لهن الرجال ويعدون لهن سهام الصيد ليفوزوا بودهن ويلهوا بوصلهن .

علون رباوة ، وهبطن غيبا
فلم يرجعن قائلة لحين
فقلت لبعضهن وشد رحلي
لهاجرة نصبت لها جبيني
لعلك إن صرمت الحبل مني
كذاك أكون مصحبتي قروني

اللغة :

الرباوة : ما ارتفع من الأرض .

الغيب : ما أطمأن من الأرض . فغاب عنك ما فيه. فلم يرجعن قائلة .

لحين : أي مستمرات في السير، ولم يملن إلى قيلولة .

obeikandl.com

الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الشمس ، وقوله لهاجرة أي من أجلها، وسميت هاجرة لأن السير يهجر فيها .

نصبت لها جبيني : أي وطنت نفسي على ركوبها.

وقوله صرمت الحبل مني : يكني به عن هجرها له وقطعها لوصله.

مصحبتي : تابعتي : يقال : ضربت البعير حتى أصحب أي تبع وانقاد .

قرونه : نفسه وموضع ، مصحبتي مبتدأ وقورني خبرة ، والجملة تفسير لقوله.

كذاك : وكذاك خير أكون ، والجملة تترجم عن جواب الشرط .

المعنى :

ويعاود الشاعر تتبعه لموكب صاحبته في عزيمة وإصرار يتزود من حميتهما ما يمكنه من تحمل ويلات الطريق ووعثاونة ، وحرارة الهاجرة ولهيبها ، فيعقبه عن حرص وكثب في صعوده وهبوطه ، ثم يقدم - هذه المرة - في جرأة على مخاطبة صاحبته مباشرة محذراً لها ألا تتصرف عنه في وصلها وودها ، وإلا نالت منه مثيل فعلتها فينصرف إلى نفسه ويصحبها بدلاً منها .

وهذا النهج وإن كان في ظاهرة يبدو مخالفاً لما يجب أن يكون عليه المحب مع محبوبته من التهالك والصبابة إلا أنه يتواءم مع حمية الجاهلي وصبوته واعتزازه بنفسه عند احتكاكه بما يؤلمه ويثير صبوته وبخاصة إذا كان في مقام الفخر كشان شاعرنا ، وإلى هذا المعنى أشار الدكتور / محمد أبو موسى في قوله : " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الشبه بالشخصية العربية، والإنسان العربي في هذه

obeikandi.com

الحقبة من تاريخه وأن الصبوة وإنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب " [1]

ولعل الشاعر يرمز بصعود الموكب وارتحاله إلى مواقع تجربته مع صاحبته وما يتخللها من شبوب في العاطفة وهدوء يعقبه .

فسل الهم عنك بذات لوث
عذافرة كمطرقة القيون
بصادقة الوجيف كأن هرأ
يباريها ويأخذ بالوضين
كساها تامكا قردا عليها
سوادى الرضيخ مع الوجين
إذا قلقت شددت لها سنافا
أما م الزور من قلق الوضين
كأن مواقع الثفنات منها
معرس باكرات الورد جون

اللغة :

الهم : الحزن ، وهو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل.

ناقة ذات لوث : أي ذات قوة ، وقيل كثيرة اللحم ، واللوث من الأضداد بمعنى القوة والضعف .

العذافرة : الشديدة القوية . **القيون :** جمع قين وهو الحداد .

الوجيف : السير السرى .

١- قراءة في الأدب القديم د . محمد أبو موسى ص ٧٣ الطبعة الأولى دار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٨م .

obeikandi.com

وقولـه : بصادقة الوجيف بدل من قوله : بذات لوث .

يباريها : يريد به ينافسها ويخدشها . **الوضين :** حزام الرحل .

التامك : السنام المشرف. **القـرد :** المجتمع الصلب .

السوادى : يريد علف السواد وهو القت والنوي ، ونسبة إلى السواد لأنه علف الأمصار لا البدو .

الرضيخ : المدقوق من النوى .

اللجين : ما تلجن ولزق بعضه ببعض ، يريد أنها علفت حتى سمنت ، وركبها سنام مشرف .

السناف : خيط أو حبل رقيق يشد من اللبب إلى الوضين لضمر البعير.

الزور : الصدر ، أو العظم الذي في وسط الصدر .

الثفنات : ما مس الأرض من يديها ورجليها ومقدمة صدرها عند البروك ، وهن خمس .

المعرس : موضع التعريس ، والتعريس هو النزول آخر الليل . أو أوله.

باكرات الورد : أي مبكرات إلى الماء ، ويعني هنا القطا ، وهي طائر في حجم الحمام.

جون : سود ، وخص القطا الجوني للطافته .

المعنى :

ثم يتخلص الشاعر من حديثه عن صاحبته إلى وصف ناقته التي امتطاها صحرائه - حتى ينفس عما احتشد في صدره من لهيب الوجد والصبابة - فراح يمعن في وصف شدتها وقوتها، فهي ناقة قوية شديدة تشبه في صلابتها مطرقة الحدادين ، كما أنها تسرع في عدوها وكأن هرا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه ،

openkandil.com

فتجد في عدوها وانطلاقها حتى تتقى مخالبه وأنيابه، ولم لا وهي ناقة قوية البنيان علفت حتى سمنت واعتلاها سنام مشرف ، قد يسبب قلقا لاستواء الرحل على ظهرها فيشد له حبل لتثبيته ، وقد بلغت من قوتها وضخامتها أنها تترك أثاراً لبروكها على الأرض تشبه اثار أفراخ القطا عند هبوطها عند موردها بكورا .

يجذ تنفس الصعداء منها
قوى النسع المحرم ذي المتون
تصك الجانبين بمشفتر
له صوت ابح من الرنين
كأن نفى ما تنفى يداها
قذاف غريبة بيدي معين
تسد بدائم الخطران جثل
خوايه فرج مقلات دهين
وتسمع للذباب إذا تغنى
كتغريد الحمام على الوكون

اللغة :

يجذ : يقطع . **تنفس الصعداء :** يعني به هواء زفيرها عند التنفس.

النسع : حبل يشد به الرحل يمتد على وسط الناقة .

المحرم : الذي لم يدبغ ولم يلين . **القوى :** الطاقات .

ذو المتون : ذو القوى ، والمعنى أنها إذا زفرت قطعت النسع بتنفسها لأنها شديدة عظيمة الوسط .

تصك : تزج أو ترمي .

المشفتر : المتفرق ، ويعني به هنا المتفرق من الحصى .

البحة : صوت فيه غلظة .

المعين : الأجير .

الغريبة : الرحى .

ونفيها : ما تطحنه وتقذف به .

دائم الخطران : ذنبها .

خطراته : حركته .

الخوابة : الفرجة .

الجثل : الكثير الشعر .

المقلات : التي لا يبقى لها ولد .

الدهين : القليلة اللبن

الذباب : أراد به هنا حد نابها إذا صرفت بأنيابها .

التغريد : التطريب .

الكون : جمع وكن . وهو عش الطائر .

المعنى :

ويستمر الشاعر في وصف قوة ناقته وضخامتها ، فهي ناقة قوية تقطع سير الرحل المتين إذا ما تنفست حتى أنها لترمي بالحصى - من فرط سرعتها - في سيرها فتقذف به جانبيها بشدة ، فتسمع له صوتاً أشد من الرنين يشبه صوت النوى المقذوف من بين شقي رحى سريعة الدوران ، كما أنها تمتلك ذنباً سميكاً دائم الخطران تسد به ما بين قوائمها ، وتسمع لأنيابها إذا ما صرفت بها صوتا يشبه تغريد الحمام على الكون .

فألقيت الزمام لها فنامت
لعادتها من السدف المبين
كأن مناخها ملقى لجام
على معزائها وعلى الوجين

كـــأن الكـــور والأنســـاع منهـــا

علـــى قـــرواء مـــاهرة دهـــين

يشـــق المـــاء جؤجؤهـــا وتعلـــو

غـــوارب كـــل ذي حـــدب بطـــين

غـــدت قـــوداء منشـــقاً نســـاها

تجاســـر بالنخـــاع وبـــالوتين

اللغـــة :

السدف : الليل ، والسدف النهار ، ويريد به هنا الضوء.

المبين : البين **العادة :** النزول من وقت السحر في مثل ذلك الوقت

المعزاء : الموضع الكثير الحصى .

الوجين : مـا غـظ مـن الأرض وارتفـع، فشـبه مواقـع ثفناتهـا بمواقـع أشـلاء اللجام إذا ألقي **الكور :** الرحل .

النساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال .

قـرواء : سفينة طويلة . **ماهرة :** سابحة .

دهيـن : مدهونة . **الجؤجؤ:** الصدر.

الغوارب : الأمواج . **الحدب :** الموج المرتفع .

البطيـن : الواسع البعيد . **القوداء :** الطويلة العنق .

وأراد بالنسـا : موضـع النسـا، وإذا سمنـت الناقـة انشـقت اللحمتـان في الفخذين فجرى النسا بينهما واستبان .

النخـاع : خيط ممتد أبيض في الصلب .

obeikandl.com

المعنى :

ويواصل الشاعر وصف ناقته وضخامة بنيانها ، فهي ناقة صلبة شديدة المراس يواصل ترحاله عليها ليل نهار ، حتى أنها لا تهجع لنومها إلا في نهاية الليل بعد طول عناء ومشقة ، فتترك أثرا لمواقع بروكها يشبه مواقع أشلاء لجام ألقي على الأرض ، وهي في ضخامتها وعنفوانها تشبه سفينة تتهادى فوق المياه بعد أن تشق بصدرها الأمواج المتلاطمة ، ولا غرو في هذا فهي ناقة قوية علفت حتى اكتملت لها روافد القوة والنشاط من السمنة وسرعة العدو .

إذا ما قمت أرحلها بليل
تأوه آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيني
أهذا دينه وديني
أكل الدهر حل وارتحال
أما يبقى على وما يقيني ؟!

اللغة :

أرطه : أجعل عليه الرحل واشد عليه أداته .

التأوه : الوجع .

درأته : مددته وشددت به رحلها .

الوضين : حزام الرحل .

دينه : عادته ودأبه .

يقيني : يحفظني ويصونني .

المعنى :

ويتمادى المثقب في وصف ناقته حتى يتغلغل إلى أعماقها ، فيترجم لنا عما يجول بخاطرها - إن قدر لها أن تتكلم - فهي تتأوه منه حزنا عندما يعدها للرحيل ليلاً ، تفضى عما في قلبها من شكوى قائلة : إلى متى يستمر في حلة وترحاله ، أما يحرص على ويقيني من هذا الهلاك ؟!

ولعل المثقب هنا أراد التنفيس عما احتدم في صدره من مشاعر الضيق والملل ، فعبر عنها بلغة شعرية وأعارها لسان ناقته ، فجاءت مصبوغة بصبغة النفسية .

فأبقى باطلى والجد منها
كدكان الداربنة المطين
ثنيت زمامها ووضعت رحلي
ونمرقه رفدت بها يميني
فرحت بها تعارض مسبطراً
على صحصاحة وعلى المتون

اللغة :

با ذلي : أي ركوبي لها في طلب اللهو والغزل .

الجد : انكماشها في السير . ودكان الدرابنة دكان البوابين، الواحد دربان، وهو فارسي معرب .

المطين : من طنته أطينه . وموضع الكاف من قوله : كدكان مفعول به أي مثل دكان .

نمرقة : وسادة اعتمدت عليها . **تعرض :** تبارى وتحاكى .

obeikandi.com

مسبطرا : أي طريقا ممتداً . **الصحصاح :** المستوى من الأرض.

المتون : جمع متن ، وهو الصلب من الأرض .

المعنى :

ويوصل شاعرنا وصفة لقوة ناقته - من زاوية جديدة - فيصرح بصلابة ناقته وشدتها بعد مرورها بكل هذا المصاعب والمهالك التي لم تستطيع النيل من قدرتها بل بقيت على قوتها وضخامتها كأنها بناء ضخم مطين يشبه مقعد البوابين، ولفرط قوتها ونشاطها راح يستأنف عليها ترحالة يعارض بها أعتى السبل وأصعبها في مختلف ألوانها .

إلى عمرو ومن عمرو أئتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثى من سميني
وإلا فاطر حني واتخذني
عدوا أتقيك وتتقيني

اللغة :

عمرو : هو عمر بن هند ، وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي ، وأبوه المنذر بن امرئ القيس اللخمى .

ومعناه : قصدت بناقتى عمرا ومن عنده أتتنى النجدات .

فاعرف منك غثى من سميني : أي فاعرف نصحك من غشك .

اطرحني : اتركني .

المعنى :

وبعد أن انتهى الشاعر من نسيبه بمحبوبته ، ووصفه لناقته ورحلته عليها ، مظهراً لصاحبته - فاطمة - قوة مراسه ، ونبل خصاله ، وسمومكانته ، التفت - بعد اربعين بيتاً - مادحاً لعمرو بن هند من قبيل الفخر بصلته به ، باعتباره ركن تكتمل به عناصر فحولته وعزته وروافد إبانه وشممه ، حتى يكشف لصاحبته أنه يتمتع بمكانة تجعله خليقاً بحبها فتعاوده بوصلها من جديد ، فها هو ذا يقول مخاطباً عمرو بن هند : إن لم تكن الأخوة بيننا على ما بينته وحددته ، فانفض يدك مما بيني وبينك ، واتخذني عدوا لك احترز منك وتحترز أنت مني ، وينطوي كل منا على ضغن صاحبه والحذر من شره .

ومـــا أدري إذا يممـــت وجهـــا
اريـــد الخيـــر أيهمـــا يلينـــي
أألخيـــر الـــذين أنـــا أبتغيـــه
أم الشـــر الـــذي هـــو يبتغينـــي

اللغـــة :

اكتفى الشاعر بذكر أحد الأمرين - في البيت الأول - وهو الخير ، اعتماداً على ما يجئ بعده - في البيت الثاني - من التصريح بالأمر الثاني وهو الشر .

المعنى :

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة أبدية راسخة يكشف فيها عن جهل الإنسان بما تضمره له الأقدار، فعلى المرء أم يسعى لبغيته دون اكتراث بنتائج سعيه ، فهي متروكة لما قدر له .

التحـليل والتعليق :

تعـد نونيـة المثقـب مـن أشـهر قصـائده الشـعرية ، وأكثرهـا شـيوعاً وانتشـاراً، تجلـت فيهـا موهبـة المثقـب الفنيـة ، وعـدد فيهـا مـن موضـوعاته الشـعرية كالنسـيب ، والوصـف ، والفخـر ، والحكمـة ، في تجـاور محكـم ، وبنـاء متكامـل، فجـاءت قصـيدته متلاحمـة متماسـكة ، تمثـل قيمـا فنيـة أصـيلة ، ولـذا حظيـت بتعليقـات كـثيرة مـن النقـاد، حتـى ورد ذكرهـا في أكثـر مـن أربعـين مصـدراً ، وصـدق " أبـو عمـرو بـن العـلاء " حين قال : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " [١]

١ . غرض القصيدة

ومـن أهـم النقـاط الـتي وقـف النقـاد بصـددها في هـذه القسـيدة ، الغـرض المنشـود منهـا ، أو الهـدف الـذي يبتغيـه الشـاعر مـن نظمهـا ، واخبرنـا شـراح الشـعر الجـاهلي مـرة بعـد مـرة أن المـدح هـو الغـرض الحقيقـي لهـذه القصـيدة ، وأن مطلعهـا الغزلـي ، ووصـف الظعـن والظاعنـات ، ووصـف الناقـة أيضـاً ، ومـا ختمـت بـه القصـيدة إن هـي إلا مقدمات للغرض الأصلي وتعليقات عليه [٢].

ويشـير الـدكتور طـه حسـين إلى أن الغـرض الأصـلي مـن نظمهـا هـو العتـاب ، إذ يقـول : " وشـاعرنا يطيـل شـيئاً في غزلـه وعتـاب صـاحبته ووصـف الظعـائن ، وهـو يطيـل كـذلك في وصـف ناقتـه والفـلاة ، فـإذا انتهـى إلى صـاحبه الـذي يريـد أن يعاتبـه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة " [٣] .

١- الشعر والشعراء ١ / ٣٩٥ .
٢- انظر قراءة الشعر ١ / ٢٤٢ .
٣- حديث الأربعاء ١/ ١٦٦.

obeikandi.com

على حين يشير الدكتور الربيعي إلى وصف الناقة هو العرض المنشود مبينا " أن الناقة - دون سواها - تبقى هنا محور العمل الشعري ، ويبقى كل شيء عداها على هامش هذا العمل " [١].

والواقع أن الغرض الحقيقي من هذه القصيدة هو الفخر ، فلو نظرنا بعمق إلى جميع موضوعاتها لوجدناها تتسم بالفخر ، فالشاعر يهدف من وراء فخره هذا إلى أن يثبت لمحبوبته " فاطمة " أنه يتمتع بمكانة عالية ، وخصال نبيلة ، تجعله خلقياً بحبها، فتعاوده بوصلها وودها بعد قطعهما عنه.

والمثقب في نونيته جاء مخاطباً لعمرو بن هند في ثلاثة أبيات تعلوها نبرة عالية من العزة والكبرياء ، يقول فيها : [٢].

إلى عمرو ومن عمرو أتتنى
أخى النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثى من سمينى
وإلا فاطر حنى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

واختلف النقاد حول هذه الأبيات نتيجة لتلك اللهجة العالية التي تكتنفها، والتي لا تتفق في طبيعتها مع مخاطبة الملوك فهل المراد منها عمرو بن هند " الملك " أم عمرو غيره ؟

١- قراءة الشعر ص ٢٦٢ .
٢- الديوان ص ٢٠٨ - ٢١٢ .

obeikandl.com

ومن هذا المنطلق أعلن الأصمعي " عن تشككه في أن المخاطب فيها عمرو بن هند " الملك " قائلاً :

" أراه غير الملك ، لأنه لم يكن ليخاطبه بمثل هذا الكلام " [١].

كما أشار الأستاذ حسن كامل الصيرفي إلى تشككه في ترتيب هذه الأبيات بقوله : " ربما كانت الأبيات الواردة بعد البيت الأول - وهي التي شككت الأصمعي بلهجتها في أن يكون المخاطب هنا هو عمرو الملك - متأخرة عن موضعها لا سيما وأن ابياتاً أخرى من هذه القصيدة قد جرى التقديم والتأخير فيها أو أنه كان يوجه القصيدة إلى واحد من أهله وعشيرته ، ثم يقول له إنه تارك له بلاده ليذهب إلى حيث يقيم الملك " [٢].

على حين يلمح الدكتور طه حسين إلى أن هذه القصيدة قد اقتضبت اقتضابا وضاع منها جزء غير قليل ، واعتمد في هذا على أن المثقب أطال في نسيبه وعتاب صاحبته ، ووصف الظعائن والناقة ، فإذا ما نتهى إلى صاحبه - عمرو بن هند - والحديث إليه لم يطل ، وانقطع حديثه فجأة [٣].

والحق أن المثقب في خطابه لعمرو بن هند - الملك - يريد أن يظهر لمحبوبته مدى ما يتمتع به من مكانه ، تمكنه من مخاطبة الملوك بهذه اللهجة التي تعلوها الندية وعزة النفس ، فيقع هذا من قبلها حسنا يسمح له بمعاودة وصلها من جديد .

١- شرح المفضليات للتبريزى ٢ / ١٠٣٥ .
٢- ديوان المثقب تحقيق أ / حسن كامل الصير في ص ٢٠٩.
٣- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٦٦ .

ومن ثم فالمثقب لم يهدف في نونيته إلى مدح عمرو بن هند ، وإنما عرض له من قبيل الفخر بنفسه ، باعتباره موقفا يثبت من خلاله مدى قدره ومنزلته ، فجاء حديثه إليه موجزاً لم يطل فيه ، ولم يقتضب كما ذهب الدكتور طه حسين .

وهكذا حرص المثقب على الفخر في نونيته ، فجاءت موضوعاتها ملائمة لفخره حتى في نسيبه بمحبوبته " فاطمة " جاء متمسكاً بعزته ومعلناً لكبريائه قائلاً لها : [1].

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني

والمثقب بهذه اللهجة العاتية التي يخاطب بها محبوبته ، والتي يكشف من خلالها عن كبريائه وعزته في حبه، جاء مخالفاً لعادة الشعراء في نسيبهم بصويحباتهم ، إذ كانوا يتهالكون في صبوتهم ، ويتخاذلون من غلبة الوجد على قلوبهم المستعرة، وهذا مسلك شائع عندهم، حتى غدا دليلا على إجادتهم في أشعارهم ونبه إليه القدماء في قولهم " يجب أن يكون النسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون من الإباء والعزة وأن يكون

١- الديوان ص ١٣٦ - ١٣٩ .

جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض [١].

ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ عبد العظيم قناوى ، قول المثقب الذي يحذر فيه صاحبته من قطعها لوصله ووده .

لعلك إن صرمت الحبل مني

كذاك اكون مصحبتي قروني [٢].

وعلق عليه قائلاً " وإذا كان هنا ما يمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطعية إن صرمت حبله ، فالعاشق لا يملك زمام قلبه ، ولا يدفع جماح نفسه " [٣].

والواقع أن المثقب في نسيبه لم يسلك هذا المسلك الشائع ، وإنما سلك ضرباً من الشعور الصداق والعميق بالصبو والشوق ، فالشاعر بعد أن قطعت عنه صاحبته ودها ، وبعد أن علاه الشوق أثار هذا الشعور في نفسه إحساساً بالشباب والقوة والكبرياء ، فراح يغنيها شعوره بالبطولة والأنفة والفعال الحميدة التي يتحلى بها ، والتي تجعله أهلاً لوصلها ، فتعاوده به " وهذا الضرب من الغزل الذي ترى حوله أنغام الاعتزاز والتغني بالفعال الكريمة وطبائع النفس الممتازة هو الأشبه بالشخصية العربية والإنسان العربي في هذه الحقبة من تاريخه ، وأن الصبوة إنما تثير عند هذا العربي الشعور بالتماسك والجلادة والقوة والشباب والفتوة والفروسية " [٤].

١- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د / محمد خفاجى ص ١٣٤.
٢- صرمت : قطعت ، الحبل : العهد والود . قروني : نفسي (الديوان ص ١٦٤) .
٣- الوصف في العصر الجاهلي ص ٣٢١ .
٤- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ص ٧٣ .

ويلمح الدكتور " الربيعي " إلى هذا الضرب من السلوك في تساؤله عن المعنى من أن يعلن المثقب العبدى غضبه على فاطمة ، وعلى مثيلة لها في مقطع تال ، ويتساءل ذلك التساؤل الملئ بالمعنى بعد ذكر الملك عمرو بن هند مباشرة ، ثم لا يحدث ذلك مع الناقة ، رغم أنه خلع عليها صفات البشر وجعلها تشكو وتبرح كما يفعل الإنسان ؟ [1].

وحول الدكتور " طه حسين " أن يجد حلاً لهذا التساؤل بتحليل راح فيه إلى أن " الشاعر أنشأ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتهي إليه أكثر مما يفكر في صاحبته التي يطلب إليها المتاع فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازما ومتشدداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين " [2].

والصواب أن المثقب جاء بتلك اللهجة العالية في خطاب لمحبوبته " فاطمة " وكذلك في مخاطبته لعمرو بن هند ، من قبيل الفخر والاعتزاز بنفسه وكبريائه فحسب ، وليس من قبيل الغضب - كما ذهب الدكتور الربيعي - بدليل أن المحرك لهذا الفخر هو حبة لفاطمة ، فهو يهدف من وراء فخره إلى وصلها من جديد .

ولم يفعل ذك مع ناقته من قبيل حبه لها وإجلاله لمكانتها ، فالناقة في نظر الجاهلي قادرة على كل شيء فهي تعين على قطع القفار الموحشة ، وإليها يرجع الفضل في انتشال الشاعر من همومه وأحزانه ، وحمايته من مخاطر الصحراء .

١- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢.
٢- انظر : قراءة الشعر ص ٢٦٢.

opelkandil.com

ولعل كل هذه التساؤلات من النقاد ترجع في أصلها إلى عدم وقوفهم على الغرض الحقيقي من نظم النونية وهو الفخر.

٢ . النحل في شعره :

ومن أهم القضايا التي أثيرت حول شعر المثقب العبدي - وبخاصة في نونيته - قضية الوضع أو النحل ، ويعد الدكتور طه حسين " من أبرز من تعرضوا لشعر المثقب من هذه الناحية ، وذهب الدكتور في اتهامه لشعر المثقب بالوضع أو النحل إلى أمرين :

عدم وضوح شخصية المثقب في شعره ، وأشار إلى هذا خطابه لمحدثه قائلاً : " ما رأيك في صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهي به إليك وحتى تنتهي به إلى مَنْ بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتتبين جرسه ونغمه ، وتتبعه متراجعا مع هذه القرون ، حتى إذا انهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصا بينا ، وإنما وجدت شخصا شائعا ، ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنهي به إلى شاعر معروف واضح الخصال ، بيِّن الشخصية ، يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي علينا مصدره إخفاء " [١].

والواقع أن شخصية الشاعر في شعره تتكشف من ناحيتين ، الناحية الأخلاقية وتتمثل في أفكاره ومعتقداته وخصاله الخلقية ، والناحية الفنية ، وتتمثل في الخصائص الفنية المميزة لشعره ، والتي يختص بها عن غيره من الشعراء.

ويلمح ابن رشيق في حديثه عن حقيقة الشاعر إلى مقومات الشخصية، قائلاً : " وإنما سمى الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكن عند

١- حديث الأربعاء ١ / ١٦٤ - ١٦٥ .

الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير " [1].

والحق أن شخصية المثقب العبدى تبدو واضحة جلية في جميع أشعاره وتترسم ملامحها من خلال أشعاره كما يلي :

فها هو ذا يخاطب محبوبته فاطمة بلهجة عالية : بعيدة عن الذل والهوان مبين عزته وكبرياء في حبه :

فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوى من يجتويني

وهو القائل في خطابه لعمرو بن هند مبينا منزلته ومكانته :

إلى عمرو ومن عمرو اتتني
أخي النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخي بحق
فاعرف منك غثى من سميني
وإلا فاطر حتى واتخذني
عدواً أتقيك وتتقيني

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

obeikandi.com

وأشاد الدكتور طه حسين نفسه بهذه البيات ، مبيناً أن الناس حفظتها لأنها راعتهم وأعجبتهم حقا " [1].

ولعلها راعتهم وأعجبتهم من قبيل مخالفتها لعادة الشعراء عند مخاطبة الملوك فالمثقب هنا يظهر جرأته وشجاعته في مخاطبته لعمرو بن هند ، ولم يستعطفه أو يمدحه طمعا في عطاياه، وهذا ما لم يكن معهودا لديهم .

وهو القائل على لسان ناقته مبينا صدق إحساسه، ودقة شعوره :

تقول إذا دارأت لها وضيني

أهذا دينه وديني ؟

أكل الدهر حل وارتحال

أما يبقي علي وما يقيني ؟

وأشار الدكتور طه حسين إلى أنها من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات [2].

وهو القائل في مكر الأقدار بالناس وجهلهم بما تضمره لهم :

وما أدري إذا يممت وجها

اريد الخير أيهما يليني

أألخير الذين أنا أبتغيه

أم الشر الذي هو يبتغيني ؟

١- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .
٢- انظر : حديث الأربعاء ١ / ١٧٠ .

obeikandl.com

ألا تكفى كل هذه النماذج الشعرية - للمثقب العبدى - بما تحويه من سمات فنية ، وخصال خلقية ، في رسم شخصية قوية ، لها خصال بينه ، وشاعرة صادقة ؟

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور طه نفسه عندما شهد للمثقب بأنه " كان خفيف الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس ، شديد الحزم ، يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك يكاد يذوب رقة ولينا " [١].

فهو يؤكد تفرد المثقب بشخصية قوية ، لها سمات خاصة ، تميزه عن غيره ، كما أنه أشاد به في موضع أخر يقول فيه " ويعجبني أن أقف عند هذا الشعر الذي بقى وثبت ، واكره الرواة على روايته والشراح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا فيه كلمات كانوا يجهلونها ، ومذاهب في النحو لعلهم لم يكونوا ليهتدوا إليها " [٢].

وفي هذا ما يؤكد وضوح شخصية المثقب وقوتها في شعره ، وإلا فكيف توافرت لهذا الشعر كل هذه المقومات من القوة والشموخ ، حتى بقى ثابتا ، واستطاع أن يكره الرواة على روايته ، والشراح على تفسيره ، ولم تتوفر فيه سمات الشخصية البينة، رغم أنه ترجمة عنها، وصدى لأنفاسها ؟!

٣ . المقدمة :

اتسمت القصيدة في بدايتها بنج فنى جديد - بالنسبة لعصرهم وهو نهج الولوج إلى لب الموضوع مباشرة دون التمهيد له بمقدمة طليلة معهودة ، يتباكى أصحابها من خلال على ما بقى في قلوبهم من طيب ذكرياتهم المنصرمة ، وحرارة

١- المرجع السابق ١ / ١٦٥ - ١٦٦ .
٢- المرجع السابق ١ / ١٦٥ .

الشوق لاسترجاع عبق أريجها ، وهو ما درج عليه شعراء عصرها ، واعتبروه شرطا لازما لتوافر عناصر القوة والإجادة في تدبيج القصائد الحسنة إلا أن المتقب العبدى في مقدمة هذه القصيدة خالف هذا النهج وقصد إلى لب موضوعه مباشرة دون تمهيد أو تقديم ، فخاطب صاحبته مباشرة في مطلع قصيدته قائلاً :

أفاطم قبل بينك متعيني

ومنعك ما سألت كأن تبيني

والناظر في هذا المطلع يتجلى له مرجع الأمر في قصد الشاعر إلى هذا النهج .

ويتمثل في سببين رئيسيين :

أولهما : شدة حبه وشغفه بمحبوبته ، فهو مَعْنِيُ بحبها في المقام الأول وقبل كل شيء فكان اهتمامه أولاً ببث أشواقه ونجواه لقلبها حتى يستميله فتعدل عن عزمها في الارتحال .

وثانيهما : ضيق المقام المفروض على الشاعر نتيجة لشروع صاحبته في الارتجال الفعلي مع صويحباتها ، مما دفع به إلى سرعة مخاطبتها مباشرة دون تريث أو إبطاء حتى يثنيها عن عزمها ، تدل عن ارتحالها وتعاوده بوصلها وودها من جديد ، وبخاصة بعد أن راح يغنيها كل هذه المواقف الفخرية التي تجعله خليقا بحبها وأهلا لوصلها وودها حتى لا تردد في مواصلة عهدها معه .

٤. الوحدة :

استطاع العبدى أن يوفر لهذه القصيدة عديداً من الوحدات الفنية التي تساعد على إبراز أواصر الصلة بين ابياتها ، فوفر لها الوحدة الشعورية وتتمثل في

هـذا الشـعور الفخـري المفعـم بالصـبوة والفحولـة والاعتـزاز، والمخـيم علـى جميـع أبيـات القصـيدة حتـى لنكـاد نستشـعره في كـل كلمـة منهـا، والمتفجـر في قلـب الشـاعر نتيجـة لعـدول صـاحبته عنـه بوصـلها وحبهـا، ممـا آثـار كـوامن الفحولـة والحميـة في نفسـه، وبخاصـة وهـو العربـي الأدبـي الـذي يتمتـع بكـل هـذه الخصـال الـتي تشـهد علـى صـبوته وفحولتـه، كمـا وفـر لهـا الوحـدة الفكريـة وتتمثـل في وحـدة الهـدف أو الغـرض الـذي قصـد إليـه الشـاعر مـن وراء نظمـة لأبيـات هـذه القصـيدة بنهجهـا المنظومـة فيـه، متمـثلاً في اسـتمالة قلبهـا حتـى تعـدل عـن ارتحالهـا وتعـاوده ووده مـن جديـد، ومـن ثـم فقـد هـداه فكـره إلى اسـتعراض كـل هـذه المفـاخر أمامهـا - بدايـة مـن مخاطبتـه لهـا بتلـك اللهجـة الأمريـة الـتي تعلوهـا نـبرة العـزة والكبريـاء، ثـم باستعراضـه لكامـل سيطرته وتمكنـه مـن ناقتـه الـتي تمتلـك كـل هـذا القـدر مـن مظـاهر القـوة والصـلابة، ثـم باستعراضـه لطبيعـة علاقتـه بعمـرو بـن هنـد والـتي تعلوهـا النديـة والاعتـداد بـالنفس - حتـى يكشـف لهـا عـن مكانتـه الـتي تجعلـه خليقـا بحبهـا، فتعـاوده بوصـلها ووده، كمـا وفـر لهـا الوحـدة الفنيـة وتتمثـل في وحـدة الطـابع اللغـوي والأسـلوبي المخـيم علـى أبيات القصيدة، هذا بالإضافة إلى وحدتي الوزن والقافية.

وهكـذا تنطـوى القصـيدة علـى عـدة وحـدات فنيـة تقـوى أواصـر الصـلة بـين أبياتهـا بصـورة تبـيح للنـاظر فيهـا أن يحكـم عليهـا بتـوفر الوحـدة العضـوية فيهـا بقـدر مـا تـوافر لهـا مـن وحـدات (كالوحـدة الشـعورية، والوحـدة الفكريـة، والوحـدة الفنيـة، ووحدتي الوزن والقافية).

ولعـل هـذا الـرأي لا يوافـق كـثيراً ممـن يجـردون الشـعر الغنـائي مـن الوحـدة العضـوية نظـراً لتـداعي أفكـاره وتـوارد خـواطره علـى مخليـة الشـاعر في غـير ترتيـب مسـبق أو إحكـام بنـائي مقصـود، إلا أن الحقيقـة الثابـت - والـتي لا جـدال فيهـا -

أن الوحدة العضوية عبارة عن مزيج منصهر من تلك الوحدات السابقة في بوتقة واحدة ، بحيث تمثل كل وحدة منها رافداً من روافد الوحدة العضوية ، ولا يمكن لأي عمل أدبي - مهما يكون نوعه - أن يكون خاليا من كل هذه الوحدات ، وإنما الأصوب أن نحكم بتحقق الوحدة العضوية في العمل الأدبي بقدر ما توافر فيه من الوحدات المكونة لها .

٥ . اللغة والصياغة :

اتسمت القصيدة في لغتها بالتنقل بين السهولة والوضوح تارة ، وبين القوة والغموض تارة أخرى ، فأحيان تنساب من جداول ألفاظه كلمات تتسم بالرقة والوضوح فتكشف عن مضمونها في سهولة ويسر دون معاناة أو تكلف نحو (متعينى ، تبينى ، غزلان ، الدانيات من الغصون ، الديباج ، البشر المصون) .

وتارة تنطلق كلماته غامضة تحتاج إلى مزيد من الجهد للوقوف على معناها نحو الوصاوص ، والسناف ، والتقنات " وما يتراءى لنا أحياناً من صعوبة متابعة الشعر لا يرجع إلى عمقه أو فلسفته بقدر ما يرجع إلى غرابة ألفاظه علينا في هذا العصر ، ووضوح الشعر الجاهلي بصفة عامة أو غالبه تفسره طبيعة الحياة الجاهلية نفسها ، الحياة البسيطة غير المركبة ، الواضحة غير المعقدة ، حياة الصحراء الواسعة التي ينطلق فيها الإنسان " [١].

وقد اعتمد الشاعر في قصيدته على عديد من الأساليب الفنية التي تشهد على براعته الشعرية ، كالترخيم في قوله :

١- الشعر الجاهلي تطوره وخصائصه الفنية د / بهى الدين زيان ص ١٥٠ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

openkanoli.com

أفـــاطم قبـــل بينـــك متعينـــي

ومنعـك مـا سـألت كـأن تبينـى

والترخـيم في اللغـة التلـيين ، ومنـه الترخـيم في الأسمـاء ، لأنهـم إنمـا يحـذفون أواخرها ليسهلوا النطق بها " [1].

والترخـيم عنـد المثقـب لا يقـف عنـد حـدود الإحسـاس بـالقرب أو الاحتضـان فحسـب ، بـل ارتـبط ارتباطـا وثيقـاً بالحالـة النفسـية لـدى الشـاعر ومـا يقتضـيه الحـال، وذلـك كقولـه السـابق : إذ جـاء النـداء في قولـه " أفـاطم " بـالهمزة وهـي لنـداء القريـب ، فهـي حاضـره في قلبـه ، قريبـة مـن روحـه ، وإمعانـا في هـذا القـرب - وكأنمـا قـد احتضـنها بقلبـه وروحـه - رخـم باسمهـا " فاطمـة " فحـذف آخـره فجـاء البنـاء " أفـاطم " بـالترخيم والنـداء بـالهمزة خـير شـاهد علـى مكانـة هـذه المحبوبـة في قلبـه كمـا جـاء الترخـيم هنـا موافقـاً لمقتضـى الحـال إذ وجـد الشـاعر صـاحبته الـتي ملكـت عليـه قلبـه قـد تأهبـت للرحيـل فـأراد مخاطبتهـا في عجلـة قبـل رحيلـها ، فكـان الترخـيم خـير معين له نظرا لضيق المقام .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها الشاعر في قصيدته الطباق ، وذلك في قوله :

فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي

خلافـك مـا وصـلت بهـا يمينـي

إذ طابق الشاعر بين الجهتين " اليمين " و " الشمال " لما بينهما من تضاد .

ومن أمثلة ذلك قوله أيضاً :

فإمـــا أن تكـــون أخـــي بحـــق

فـاعرف منـك غثـى مـن سـميني

١- لسان العرب مادة رخم .

obeikandl.com

وإلا فـــاطر حنـــى واتخـــذني

عـــــدواً أتقيـــــك وتتقينـــــي

إذ جـاء مطابقـا في البيـت الأول بـين اسمـين " الغـث والسـمين " ، وهمـا مـن الصفات الحسية ، على حين طابق في البيت الثاني بين فعلين " اطرحني واتخذني" .

ومن الأساليب البديعية التي اعتمد عليها أيضاً في قصيدته الاستفهام ، وذلك كقوله :

لمـن ظعـن تطـالع مـن ضـبيب

فمـا خرجـت مـن الـوادي لحـين ؟

تبصـر هلـى تـرى ظعنـاً عجـالاً

بجنـب الصحصـحان إلـى الـوجين ؟

إذ شـخص الشـاعر مـن نفسـه شخصـاً آخـر - علـى سـبيل التجريـد - وتوجـه إليـه مخاطبـاً في الأسـلوب الاسـتفهامي ، والاسـتفهام هنـا يكشـف أبعـاد تلـك الحالـة النفسـية الـتي تكتنـف الشـاعر ، إذ توجـه إلى متسـائلا لمـن هـذا الظعـن وهـو يعلـم أنـه لصـاحبته ، وكأنمـا يمنـى نفسـه أن يكـون هـذا الظعـن لشـخص آخـر، فـلا تقـوى نفسـه على تحمل الحقيقة ، وهي ظعن المحبوبة .

وفي قولـه " تبصـر هـل تـرى ظعنـا " يـبين أن عينيـه لا تقـوى علـى المشـاهدة بنفسـها مـن شـدة دموعهـا المنهمـرة ، فيتوجـه إلى صـاحبة متلمسـاً منـه أن ينظـر نيابة عنه ، حتى يمتعه بحديثه عنها .

ومن استفهاماته أيضاً قوله يتحدث على لسان ناقته :

تقـــول إذا درأت لهـــا وضـــيني

أهـــذا دينـــه أبـــداً ودينـــي ؟

وقد يأتي باستفهامين في بيت واحد كقوله :

أكـــل الـــدهر حـــل وارتحـــال

أمـــا يبقـــي علـــى ومـــا يقينـــي ؟

والاســـتفهام هنـــا معنـــاه التعجـــب والتقريـــع ، وكـــرر الاســـتفهام مبالغـــة في التعجب كما يومئ هذا الاستفهام إلى عدة إشارات منها :

١. دقـة ورهافـة حسـه إذا اسـتطاع أن ينفـد إلى بـواطن ناقتـه ويستشـعر وجدانها بهذا القول .

٢. شـعور المثقـب بظلمـه لناقتـه وإثقالـه عليهـا في رحلاتـه ، حتـى أنهـا لـو قـدر لهـا أن تـتكلم لأعربـت عـن شـكواه بهـذا القـول ، وفي هـذا مظهـر مـن مظاهر اهتمامه بها وحبه لها .

٣. إحسـاس المثقـب بالضـيق والملـل مـن كثـرة ترحالـه ، فعـبر عـن إحساسـه هذا على لسان ناقته حرصا منه على مظهره أما صاحبته .

هـذا وقـد حـوت القصـيدة عديـداً مـن الصـور الفنيـة الـتي تشـهد علـى اقتـدار صاحبها وتمكنه من أدوات فنه ، ومن تلك الصور قوله :

يجـــذ تـــنفس الصـــعداء منهـــا

قـــوى النســـع المحـــرم ذي المتـــون

تصـــك الجـــانبين بمشـــفتر

لـــه صـــوت أبـــح مـــن الـــرنين

كـــأن نفـــى مـــا تنفـــى يـــداها

قـــذاف غريبـــة بيـــدي معـــين

وهي صورة كلية تكشف عن قوة ناقته وشدتها ، وتتكون من ثلاث صور جزئية تتمثل كل واحدة منها في بيت مستقل ، وتتضافر فيما بينها لتعطي مشهدا متكاملاً ينطق بالقوة والنشاط من جميع جوانبه .

ففي البيت الأول يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها عند تنفسها حتى أنها لتكاد من شدة تنفسها واتساع صدرها أن تقطع سير الرحل عند التنفس ، وهي صور حسية بصرية مفعمة بالحركة تعتمد على خيال بسيط استمد روافدها من واقعه المشاهد .

وفي البيت الثاني يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية أخرى يعكس فيها سرعة ناقته وشدة عدوها، حتى أنها من فرط سرعتها تقذف جانبيها ببعض الحصى المتطاير من وقع نغماته دوى الرنين بل هو أقوى ، وهي صورة حسية بصرية مفعمة بالحركة أيضاً تعتمد على خيال خصب بسيط يستجلب روافدها من واقعه المشاهد ويعاود تركيبها أو رسم معالمها بعد إعمال خياله فيها .

وفي البيت الثالث يصور الشاعر قوة ناقته وشدتها من زاوية جديدة ، يعكس من خلالها شدة سرعة ناقته وشدة صلابتها في عدوها ، حتى أنها من شدة وقع قدمها على الأرض في عدوها تطحن ما يقع تحت قدمها من حصى فيبدوا دقيقاً في صغره وكأنه طحين منبعث من بين شقى رحي قوية سريعة الدوران ، وهي صورة حركية تعتمد على الحسن في إدراكها ، أعمل فيها الشاعر خياله إلى حد بعيد حتى استطاع أن يأتي بها على هذه الشاكلة المفعمة بالحركة والنشاط من جميع جوانبها .

وهكذا استطاع الشاعر أن يجاور بين هذه الصور الجزئية الثلاث في مقدرة فائقة تمكن من خلالها أن يصور مشهداً متكاملاً يموج بالحركة من جميع جوانبه.

obeikandl.com

ومن بديع صوره أيضاً قوله يصور سرعة ناقته :

فسل الهم هنك بذات لوث

عذافرة كمطرقة القيون

بصادقة الوجيف كأن هراً

يباريها ويأخذ بالوضين

فها هو ذا يجمع بين صورتين أحداهما ساكنة يدعو فيها نفسه إلى إزاحة الهم عنه باستطانه لناقته القوية الصلبة التي تشبه فيها صلابتها وشدتها مطرقة الحدادين ، والثانية متحركة يصور فيها سرعة ناقته العاتية واستمرارها وكأن هرا معلقا بجانبها ينهشها بأنيابه ومخالبه فتجد في عدوها للفرار من شراسته ، وهما صورتان حسيتان اعتمد الشاعر في استجلاب روافدها على واقعه المشاهد بعد إعماله لخيال خصيب وبخاصة في صورته الثانية التي جاءت مشعة بالنشاط والحركة من جميع جوانبها .

٦ . الموسيقى :

وقد اختار الشاعر لقصيدته بحر الوافر ، وتفعيلاته (مفاعلتن مفاعلتن مفاعل) في كل شطر ، وهو من البحور اللينة الطيعة يشتد إذا شددته ويرق إذا رققته ، وأكثر ما يجود به النظم في الفخر ،[1] ومن ثم فهو بحر يتواء مع عاطفة الشاعر الجياشة والمفعمة بمشاعر الصبوة والفحولة والاعتزاز .

كما اتخذ الشاعر من حرف النون المكسورة رويا لقصيدته ، وقد اعقبها بياء وصل ممدودة حتى يتيح لنفسه مساحات رحبة تعينه في التنفيس عما بداخله من

١ - انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٩٣/١ تحقيق أ / أحمد محمد شاكر ط٢ دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢م .

obeikandl.com

جيشان مشاعر الصبوة والكبرياء ، وبذلك تتواءم القافية مع الوزن في إيجاد مناخ ملائم لعاطفة الشاعر وعمق تجربته ، وبهذا الوزن والقافية تمتعت القصيدة بنبرة موسيقية عالية الجرس ، واضحة الرنين ، اعلت من قدر شاعرنا ومكنت لشعره وشاعريته في قلوب السامعين ، مما دفع بأبي عمرو بن العلاء بتعقيبه على هذه القصيدة بعد سماعها واستحسانها بقوله مادحا : " لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه " هذا بالإضافة إلى إنها حظيت بتعليقات كثيرة من قبل الأدباء والنقاد ، حتى ورد ذكرها في أكثر من أربعين مصدراً .

obeikandl.com